

مصر في القرآن عبد الله الطيب

جلى أن القاهرة انما انشئت منذ ألف عام أوائل الحكم الفاطمى غير أن الفسطاط لم تكن بعيدة من حيث اختطت وهى الآن جزء من مصر المعاصرة كما القاهرة المعزية وقاهرة صلاح الدين كلتاهما جزء من مصر المعاصرة - ولعل هذه أن تكون قدامتدت حتى بلغت أطرافها موقع مدينة منف عاصمة الفراعنة الأولين . وقد كانت الاهرام معلما لها كما هى معلم القاهرة الآن وكما قد كانت معلم الفسطاط وكلما جاور الجيزة من عواصم القطر المصرى من قبل .

وأحسب أن قول الله تعالى : **« وفرعون ذى الأوتاد »** عسى أن يدخل فى مدلوله الاهرام وان لم يكن احد من مشهورى المفسرين قد ذكر ذلك ، قالوا الجنود والملاعب وأشياء كانوا يعذبون بها ، من ذلك ماذكروا من تعذيب آسية امرأة فرعون ، فى وجوه آخر كما ذكروا . ولا يخفى أن معنى الجبال غير بعيد عن معنى الأوتاد لقوله تعالى : **« والجبال أوتادا »** ... ولا يقدح فى ذلك أن الاهرام من صنع البشر ، والله تعالى أعلم (١) .
والمواضع التى ذكرت فيها مصر ممنوعة من الصرف دالة دلالة واضحة على حاضرة النيل أربعة (٢) ، منها فى سورة يونس قوله تعالى : **« وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا القومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة »** وهذا كان أمرا من الله لهم قبل عبور البحر فيما ذكر المفسرون (٣) .

وفى سورة يوسف موضعان **« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته »** - هذا يقوله العزيز ، **« وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين »** هذا يقوله يوسف لأبويه وأخوته . وفى سورة يوسف من نعت حضارة مصر ما لا يخفى قوله تعالى : **« وأعدت لهم متكأ »** . وما فيه من الدلالة على ترف العلية . قال محمد بن جرير ومعناه أعدت لهم متكأ يعنى مجلسا للطعام وما يتكئ عليه من التمازق والوسائد (٤) . وقوله تعالى : **« لا يأتیکما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتیکما »** ... فدل على حياة اجتماعية فى السجن تبيح للسجين أن يتحدث ويتساءل ويتعلم كما تنص على عناية باطعامه وقوله تعالى : **« تزرعون سبع سنين دأبا »** الى آخر الآيات التى هى باب درس مستفيض فى أمر العمران والاقتصاد والتدبير وقوله تعالى : **« ثم أذن مؤذن أيتها العير انکم لسارقون »** ... وما فيه من الاعلام بالضبط والحزم فى حراسة المدينة ما يدخل فيها وما يخرج منها

.... وقد دل من قبل أن لها أكثر من باب واحد وتلك مقالة سيدنا يعقوب : « يابنى لا تدخلوا من باب واحد » .

والموضع الرابع في سورة الزخرف : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » . ونعت الريف والخفض المصرى ههنا جلى - وأحسب أنه لم تغب عنك صفة الجنة التى خلعها النعت الكريم على مصر - اذ جرى الأنهار تحت البساتين من أوصافها : « ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار » « لهم غرف من فوقها غرب مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله » وهلم جرا .

وبقى موضع خامس جاءت فيه لفظة مصر منصوبة منونة وهو فى البقرة وذلك قوله تعالى : « اهبطوا مصرا » فى معرض الحديث الى بنى اسرائيل قالوا وأراد به وهو تعالى أعلم بمراده - مصرا من الأمصار . قلت وهو وجه يحتمل الا أنه مخالف لظاهر السياق أن يقول لهم الله جل شأنه اهبطوا مصرا هكذا على الإبهام . ثم لما ارتبط فى الأذهان من أن مصر انما تطلق على حاضرة النيل وفى القرآن من ذلك مواضع أربعة كلهم فى سور مكيات فمجيء مصر مبهم لا يدل عليها كانه غير مسابير للظاهر من استعمال القرآن . والطبرى فى تفسيره أكثر ما يحمل الكلام على الظاهر المؤلف من كلام العرب .

وقال فى هذا الحرف بعد أن قدم آراء القوم من قال انها مصر من الأمصار ومن قال انها الأرض المقدسة ومن قال انها مصر النيل : قال أبو جعفر « والذى نقول به فى ذلك أنه لادلالة فى كتاب الله على الصواب من هذين التأولين ولاخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع مجيئه العذر .

وأهل التأويل متناسعون فى تأويله ، فأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب أن يقال أن موسى سأل ربه أن يعطى قومه ماسأله من نبات الأرض على ما بينه الله جل وعز فى كتابه وهم فى الأرض تائهون ، فاستجاب لموسى دعاءه وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قرارا من الأرض التى تنبت ماسأل لهم من ذلك اذ كان الذى سأله لاتنبته الا القرى والأمصار ، وأنه قد أعطاهم ذلك اذ صاروا اليه ، وجائز أن يكون ذلك القرار مصر وجائز أن يكون الشام . فأما القراءة فانها بالألف والتنوين « اهبطوا مصرا » وهى القراءة التى لايجوز عندى غيرها ، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين واتفاق القراء على ذلك ، ولم يقرأ بترك التنوين فيه واسقاط الألف منه الا من لايجوز الاعتراف به على الحجة فيما جاءت به القرأه مستفيضا بينها « (٥) .

قالوا وقرأ بترك التنوين ابن مسعود وأبى بن كعب وكلتا القرائتين ليست مما جاء به المصحف الأمام - ولكن ذلك مما يستبدل به على أن المراد مصر النيل ان شاء الله .

وذكر الطبرى ما احتج به قوم ممن قالوا انها مصر النيل من قوله تعالى فى فرعون وملائه « **فاخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى اسرائيل** » فى الشعراء وقوله تعالى فى الدخان « **كذلك وأورثناها قوما آخرين** » قال الطبرى « فأخبر الله جل ثناؤه أنه قد ورثهم ذلك وجعلها لهم فلم يكونوا يرثونها ثم لا ينتفعون بها قالوا ولا يكونون منتفعين بها الا بمصر بعضهم اليها والا فلا وجه للانتفاع بها ان لم يصيروا أو يصير بعضهم اليها » (٦) .

ورد هذا الراى بأن الله قد ملكهم الكنوز ولم يردهم الى مصر ومن هذه الكنوز صنعوا العجل على ما هو مذكور فى سورة الاعراف : « **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار** » وفى غيرها وهو خبر السامرى .

وما أشبه أن يكون راى من تأولوا « **مصر** » بمصر ههنا هو الراجع . للذى روى الطبرى نفسه من مجازاة رسم المصحف كما نونوا « **قواريرا** » من فضة كما فى قراءة نافع . وقد وقف أبو عمرو بالالف كما يوقف عند المنون فتأمل على طرحه التنوين .

ومما يقوى هذا الوجه جواز أن تنون مصر على أن مصر أبو قبيلة هى مصر ولو توهمها كما كانت تفعل العرب بأسماء القبائل . وقد قرئت ثمود التى بالالف فى القرآن منونة (وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم) (وعادا وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرا) (وشمودا فما أبقى) والقراءة الذين قرأوا ذلك لم ينونوا فى حالتى الجر والرفع « **الا أن ثمودا كفروا ربهم الا بعدا لثمود** » « **الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود** » كلتاهما فى هود . وأن صح هذا الذى نميل اليه فيكون بنو اسرائيل قد عادوا الى بادية قرب مصر فى التيه الذى تاهوا .

وليس فى التوراة انهم عادوا . ولكن ليس ما ضربت عنه التوراة حجة .

وما أشبه أن يكون أهل التيه قد استعانوا بمصر فى الذى أقدم عليه يوشع بن نون فيما بعد من دخول الأرض المقدسة - وهذا يساير قول الله تعالى : « **أهبطوا مصر فان لكم ماسألتهم وضربت عليهم الذلة والمسكنة** » ثم قال تعالى فى سورة آل عمران : « **لن يضروكم الا** »

أذى وأن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون، ضربت عليهم الذلة أين
ما نقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس» ... فالذى كان من أمر
يوشع ما خلا من حبل من الناس مع الذى كان من توفيق الله تعالى فإن
كان ذلك فإلوجه الذى نميل اليه من أن التيه أنه كان فى حيز
مصر وبها استعان أصحابه فى الخروج منه آخر الأمر عسى أن يكون صحيحا
والله تعالى أعلم .

حاشية

(١) تأويل الأوتاد : قوله تعالى : « وفرعون ذى الأوتاد » فيه تعريف للملك مصر بأنه صاحب الأوتاد ، أى البنيان الذى هو كالجبال التى جعلها الله أوتادا فهذه أوتاده التى ارسى بها ملكه ومن هنا دخل على اهل التأويل تأويلهم اياها بالجنود والتعذيب والملاعب وهلم جرا وكل ذلك من أداة الملك .

ولا يخفى ان صحة هذا الذى نذهب اليه من تأويل الأوتاد ودلالاتها المعلمية على صاحب مصر وعلى نفسها وهذا قولنا آنفا انه لم تخل عاصمة من عواصم مصر فيما بين منف والقاهرة من ان كانت اعلام الجيزة لها علما . بل لم تكن تغا عاصمة مصرية من ان كانت الاهرام لها علما لا بل ان عواصم النوبة اللاتى ففون مصر فى حضارتها وتاريخها جعلن « الطرايب » (وهو الاسم المحلى لاهرام البجراوية ونورى) لهن اعلاما وشبه اهرام الجيزة بجبال الارض لطلوهمس يجعل متهن على مد البصر شيئا فريد الشكل بين صنع الاله وصنع البشر . وكلا سخرى ضوء القمر والشمس عليهن يوشك ان يكون مبابنا لنفسه على غيرهن ، على الرمل مثلا وعلى الارض العزاز ، بيتهن وبين لبن القمر ووهج الشمس طبيعة اخاذة من الانسجام ، وقد كان قبل امتداد العمران الى قريب متهن يزيد من قوة ذلك قرب النيل واتصال سحر روائه بروائهن . ولعل الاهرام بوضوح اجرامهن وجهارتهن وبروزهن وتجرد احجارهن عن كل زائدة من اجمل ما ازدانت به مصر - السريف والحاضرة على توالى العصور . ولعل الحديد التى هى الآن على راس الهرم الاكبر ان تزال متى امكن ذلك فانها ليست مما يزين حقا والله تعالى اعلم .

(٢) لعله ان نسأل : فكيف علمنا ان مصر التى فى المواضع المتنوعة من الصرف تدل على حاضرة النيل ؟ والجواب عن ذلك فى آية سورة يونس اذ دلالتها واضحة على نبوء بيوت حاضرة بعينها ، اذ لا يعقل ان يتنوا موسى واخوه لقومهما بيوتا شتى فى طول القطر المصرى وعرضه مشتمتين فيه ، وذلك قوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه ان تتبوا قومكما بمصر بيوتا واجملوا بيوتكم قبلة » وسوى الشاهد العقلى الذى قدما قوله : « واجملوا » بخطابهما مع قومهما على الجمع نص قاطع بان تبوا البيوت وجعلها « قبلة » كل ذلك فى موضع واحد هو حاضرة الملك . هذا وقول فرعون فى الزخرف : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » يوشك ان يكون ادل على المملكة كلها وعلى الريف ممتها دون القرية والمدينة وكان فرعون مشرف على كل ذلك من مكان عال . وآيتنا يوسف ادل على المدينة نفسها وان كان فى الاولى شمول قد يستفاد منه معنى القطر المصرى وحاضرتة او بعض حواضره معا وذلك قوله تعالى : « وقال الذى اشتراه من مصر لامرته اكرمى مثواه » . وسياق القصة دلنا على انه من حاضرة مصر لان فى قوله تعالى من مصر نفسه كالنص على ذلك والله اعلم . والآية الثانية بها المعنى العام ولكن اتصالها بالحاضرة نفسها اقوى وذلك قوله تعالى : « ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » لما سبقها من النص على ادناء يوسف ابويه اليه ، قال تعالى : « فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » .

وجماع هذه الآيات الاربع يستفاد منه ان الله ان القرآن اطلق مصر على الحاضرة وعلى البلد كله كصلنا الآن اذ نقول مصر « نريد القطر المصرى ونريد عاصمته » . وفى هذا دلالة خفية على قوة اتصال هذه العاصمة بريف نيلها اتصالا يجعلها امتدادا لجيوته كما هو اطار لها ومدد . ولعل هذا ان يدعو الى التفكير فى تصميم اكثر من عاصمة واحدة لريف مصر . كلهن مصر ، لكى ندرأ بذلك عواقب ما يشأ من التركيز والتضخم فى الحواضر الكبرى فى هذا العصر .

(٣) آية البقرة على النحو الذى رجحنا تمثل ظاهرة من انتقال البدو قريبا من الحاضرة حتى يستوطنوها . وان صح استنتاجنا فقد صرف ولاية مصر عنهم هؤلاء البدو بتشجيعهم على حرب اعدائهم الاشوريين وتباعهم فى ارض كنعان من ادنى الشام . كما قد شجع الفاطميون من بعد بنى هلال على عبور النيل واخراج بلاد المعز بن باديس . فى كلتا الحالتين تخلص ولاية مصر من زيادة طبيعية طارقة مقلقة

بالنسبة الى نماء المدينة وتخطيطها وتديرها . والآن في مصر المعاصرة وفي غيرها من حواضر العالم قد يجيء التضخم من الداخل ، من بدو الريف والقريب الاصيل الذى هو امتداد ومركز لحيويته ، تهافتنا من فراشه على اصوائها وسعيا من نمله الكادح الى حبة العيش الجديدة في افنائها . وقد بدأت اوربا والشماليون منها بوجه خاص (وامريكا استمرار لهؤلاء) فى اواخر القرن الماضى واوائل هذا القرن بدعة التفاخر بضخامة المدينة العاصمة فى جملتها وفى تفاصيلها - كان يقال مثلاً (كلابهم جنكش Clapham Junction) اكبر ملتقى خطوط حديدية فى العالم اجمع

ولندن اكبر مدن العالم واكثرها سكانا واعظم فرصة بحر وهلم جرا . وقد اثبتت ضراوة الحروب المعاصرة خطورة تضخم المدن يضاف الى ذلك ضراوة حاجات السلم من تنظيم اماكن العمل وملاعب الاطفال وحركة المرور ومواقف العربات . وقد التمس حل التضخم بعض العواصم بايجاد توابع صناعية وبلا مركزية بعض الادارة وكل ذلك ذو نفع موقوت عاجل انقشاع الاثر . ولا بد من اقتناع اولى الراى والساسة فى العالم اولا بان لا مجد فى الضخامة وكثرة تعدد السكان فى حاضرة واحدة بعينها بل ينبغي ان تلتبس وسائل الراحة والدعة وما يسر الاعين والقلوب وعسى وجود ذلك ان يكون مع صغر احجام العواصم او توسطهن . وربما دعا الاقتناع بنحو من هذا المبدأ الى تعدد العواصم فى القطر الواحد بلا مركزية الادارة والحكومة الكبرى نفسها بعد تحليلها الى عناصرها الرئيسية وتوزيع ذلك كل فى الموضع الذى يناسبه فى القطر الواحد .

ومن نعم الله على مصر ان الله عز وجل قد خلقها ربفا واحدا واتاحها اكثر من موقع واحد لعاصمة واتاح كل موقع ذخيرة من تراث وتاريخ . فعسى صرف بعض اجهزة الحكم والكسب الرئيسية الى ثلاثة او اربعة من هذه المواقع ان يعين على تجميل القاهرة وان تتجنب كثيرا من مزلات ماصارت تتعرض له كبريات العواصم فى هذا العصر .
والله تعالى اعلم .

(٤) الطبرى - دار الحلبي ٢٠١/١٢ .

(٥) الطبرى ٢٥/٢ - ١٢٦ طبعة دار المعارف

(٦) نفسه : ١٢٥